صورة الأنا في مخيلة المؤرّخ العماني لتاريخ شرق إفريقية "كتاب جهينة الأخبار أنموذجا"

د. محمود بن يحيى الكندي
أستاذ فلسفة اللغة العربية وآدابها
كلية العلوم والآداب - جامعة نزوى

الملخص:

سعينا في هذا البحث إلى تلمّس صورة الأنا في مخيّلة المؤرّخ العماني وهو يدوّن تاريخ شرق إفريقية، وقد وقع الاختيار على كتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار؛ إذ يعد من خير ما يمثّل الخطاب التأريخيّ العمانيّ في شرق إفريقية، واقتفينا مناهج تحليل الخطاب في إدراك موضوع البحث في هذه المدوّنة.

ظهر جليّا وجود صورة محدّدة المعالم والأبعاد للأنا في كتاب جهينة الأخبار، فكانت الأنا متجلّية في دوائر متداخلة ومتمايزة في الوقت ذاته من أبسط دوائرها (الأنا/ الذات الساردة) مرورا بـ(الأنا العماني الإباضي) وانتهاء بـ(الأنا العربي) في صورتها الكليّة. ويرى البحث أنّ المغيريّ لم يكتف برصد صورة الأنا، بل أضاف إلى خطابه بعدا نقديّا، ولعلّ ما قدّمه من نقد للذات في أبعاده العميقه مفيد جدّا في إضافة بعد مهمّ من أبعاد الأنا تسهم في تقييم الوجود العماني في شرق إفريقية.

كلمات مفتاحية: جدليّة / الخطاب / الآخر / الأنا.

Ego in the Imagination of Omani Historians of East Africa - the Book "Juhainat al-Akhbar" as a Sample

Abstract:

Omanis presence in East Africa was accompanied by cultural and civil existence that had different dimensions. The literary discourse stands out as one of the phenomena that deserve to be studied in a systematic manner to produce an understanding of this civil contribution that had clearly recognizable benefits and advantages in that geographical area.

This study investigates the image of the ego in the imagination of Omani Historians while they compile East African history. We chose the book Juhainat al-Akhbar because it represents the most comprehensive source for such a study.

The study examines the historical discourse in this book based on the analytical methodology. Regardless of the facts narrated in the book, the study

highlights the appearance of the ego in this historical work.

The writer has not only highlighted the ego in his book, but added to it an analytic dimension as well, the most respectable addition he included is his critique of the ego, giving very valuable information to those attempting to evaluate that era in history.

He presented the combined ego of the Arab, the Omani, the Ibādi and the African in the way it was perceived and recognized in that culture. The writer presented a unique blend between all of these ethnic and intellectual roots producing a valuable document for study those times.

This paper goes deep in the literary packages and expressions but aims at illuminating how far a linguistic product can reflect a civilized community.

Keywords: dialectic, discourse, other, ego.

مقدمة

تناولت العلوم الإنسانيّة مفهوم الأنا والآخر حسب الاختصاص، ووظّفته بوصفه ظاهرة من الظواهر الإنسانيّة الأساسيّة في وجودها؛ إذ لا توجد الأنا بمعزل عن الآخر، بل إنّ "وجود الغير يكشف عن وجودي"[1]، وعلى هذا التصوّر؛ فوجود الأنا مرهون بوجود الغير، وانعدام الغير يعنى ضبابيّة وعي الذات بنفسها، وهو شكل من أشكال العدم. وقد تعمّق النظر إلى الأنا والغير في المنظور الفلسفي في شتّى الاتجاهات الفلسفيّة، واستفاد علم النفس والتحليل النفسي من الجدليّة والصراع بين الأنا والآخر في فهم الظاهرة الإنسانيّة وإدراك عمق النفس الإنسانيّة.

ومن العلوم الإنسانيّة التي تلقّفت جدليّة الأنا والآخر علوم اللغة بمفهومها العامّ، وأصبحت جدليّة الأنا والآخر من الموضوعات التي يمكن أن يدرسها تحليل الخطاب عندما تتجلّى هذه الظاهرة في تلاوين الكلام واختيارات المتكلّم أو الكاتب، ويكون درسها في هذا المستوى ضمن اشتغال علم اللغة فيما هو لغويّ منجز، كما يمكن درس هذه الجدليّة في أبعادها المتجليّة وراء النصّ، ويكون درسها في هذا الجانب ضمن ما هو ميتالغويّ. وعلى الأوّل نؤسس موضوع البحث الذي نرومه؛ الذي يستعين بمناهج تحليل الخطاب في رصد تجليات الأنا في نصّ جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار لسعيد بن علي المغيري.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا البحث لا يحفل بتدقيق الحقيقة التاريخيّة، ولا يحفل بمطابقة المؤرَّخ بالواقع الذي أُرّخ له، فهذا من شأن علم التاريخ، ولكنّه يتتبّع العبارات التي تتجلّى فيها صورة الأنا، فعمل في النصّ لا خارجه، وإن جنح البحث إلى خارج اللغة في تشكيل

صورة الأنا وإدراك الجدل والصراع الذي يحدث في دوائرها؛ فهو ممّا يردّ إلى البحث الميتالغويّ، وهو من صميم شواغل علم اللغة.

ولاشكّ في أنّ النصّ ينطق بطريقي التصريح والتلميح، ومن المعاني الأول يمكن إدراك المعاني الثواني، وتتبّع هذه المستويات ضرب من التفسير أو التأويل، وهذا من مناهج تحليل الخطاب ومسالكه، وليس للباحث بُدٌّ في اعتماد هذه المسالك في إدراك صورة الأنا في هذه المدوّنة التي نحسبها ونزعم أنّها ثريّة بهذه الظاهرة.

وجدير بالذكر في هذا المقام أنّنا نستعير مصطلح الأنا من منظور علم الفلسفة والتحليل النفسي غير ملتزمين بالتدقيقات المفاهيميّة الحاصلة بين الاتجاهات الفلسفيّة المتباينة، ولا بالتدقيقات التفصيليّة بين الأنا والأنا العليا في التحليل النفسي؛ لأنّ هذه التدقيقات لا تخدم البحث في هذه الظاهرة، فما يرومه هو تبيّن صورة الأنا في منجز لغويّ ينتمي إلى الكتابة التاريخيّة مستعينا في ذلك بما تقدّمه الفلسفة وبما يقدّمه علم النفس من إضاءات مفيدة.

يصدر البحث من إشكاليّة تتمحور في أبعاد صور الأنا في مخيلة المؤرخ العماني وهو يؤرخ لزاوية خاصة من زوايا التاريخ من طريق المغيري نموذجا، وتتشظّى هذه الإشكاليّة في تساؤلات بحثيّة من قبيل: كيف كان وعي الأنا بذاتها في مدونة البحث؟ وهل أثر الوعي بالآخر في تصوّر الأنا؟ وما أبعاد الصورة التي يمكن رصدها للأنا في خطاب المغيري في مدوّنة البحث؟ وهل تجلّت صورة الأنا في تشكّل واحد؟ أو أنّ الأنا يمكن أن تنشطر إلى مجموعة تصدر من المجموع نفسه.

ويلتزم البحث بمدونته وهو كتاب جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، لسعيد بن علي المغيري[2]، تحقيق محمد علي الصليبي، الطبعة

الثالثة، وزارة التراث القومي والثقافة، 1992. من القطع المتوسط في 589 صفحة. يتكون من أربعة أبواب في كل مجموعة من الفصول، بدأها المغيري بالاكتشافات العظيمة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وأنهاه بتاريخ زنجبار بين الحربين، مناقشا فيه قضايا خاصّة خارجة عن التراتبيّة التاريخية، مثل قضية الرقيق والرجل العربي والمرأة العربية.

وهذه المدوّنة بوصفها كتابا تاريخيا لابدّ وأن تحضر فيها نظرة للأنا بصفتها أساسا من أسس سيرورة الإنسان وتدافعه في الوجود، و"تكاد إشكالية (الأنا والآخر) أن تكون حاضرة بشكل مباشر أو ضمني في كل الدراسات المتعلقة بالتفاعلات اللإنسانية بمستوياتها وأشكالها كافة في كل زمان ومكان"[3]؛ ومن هذه الزاوية وقع الاختيار لهذه المدوّنة، وهذا الكتاب "يتميز بأن صاحبه كان شاهد عيان على بعض الأحداث التي دونها؛ لذا فإنه يعدّ من المصادر المهمّة في تاريخ شرق افريقية"[4]. وستكون الإحالة على مدونة البحث بذكر الصفحة فقط في الهوامش.

دوائر الأنا في خطاب المغيري:

يشير مدلول (أنا) من المنظور الدلالي اللغوي إلى ضمير المتكلّم المحيل على الذات المفردة، ويدخل فيه كل ما يحيل على هذه الذات من العناصر اللغويّة كياء المتكلّم أو تاء المتكلّم، ولكنّ الأنا قد تتسّع لتشمل "نحن" عندما تصير "نحن" بمثابة "أنا"، وتتجلّى هذه الذات في صيغة المفرد أو في صيغة الجمع في تلاوين الكلام؛ فتعطي القول مدلولا

خاصّا يمكن تخصيصه من زاوية مخصوصة مثل تصوّر الذات عن نفسها أو غيرها.

وفي المنظور الفلسفي الأنا عند لالاند "وعي ما هو عليه وذكرى ما كان عليه، فليس [الأنا] سوى مجموعة الأحاسيس التي يشعر بها وتلك التي تذكّره بها الذاكرة"(5)، ويتجه هذا المنظور إلى الجانب العقلي والفكري المحض للأنا، وإلى وعي الفرد بواقعه؛ أي بما هو عليه بقيمته وأبعاده، وبما كان عليه في مستوى الذكرى، وهذا التعريف يجعل للأنا موقعا من التاريخ، ولاشكّ في أنّ الأنا تتجلّى في التاريخ بوصفه عملا ينطلق من وعي ما.

وترتبط الأنا بالإدراك وهو الوعي بتعبير لالاند، فـ"الأنا عند كانط هو القوة المدركة"(6)، وهذا الإدراك من منظور فردي مرتبط بالأنا ومكوّناتها، فالأنا على هذا الاعتبار ذات مدركة بقوّة إدراكها الذاتيّة، وكل هذه المفاهيم المتعلّقة بالأنا تدور حول الوعي والشعور بهذا الوعي، ويقول هيجل في شأن الأنا: هو "الشعور والوعي"(7).

ولا تأتي أهميّة الأنا في كونها مسلك إدراك الذات وما هي عليه وما كانت عليه فحسب، فمع ذلك هي "الوسيط الذي من خلاله نحاول أن نبلغ إلى تصوّر الهو"(8)، وتكون الأنا فاعلة في إدراك أناها والهو (الآخر)؛ فهي تعمل فيما يبدو في اتجاهين متقابلين أو متناقضين، ولكنهما متضافران وجودا؛ فلا وجود لأحدهما مع عدم الآخر، وعدم أحدهما عدم للآخر، وكما يرى هيجل في تصوره الديالكتيك القائم بأن الشيء يحضر نقيضه يكون "الغير وعيا بالذات"(9).

ومن شأن الذات أن تنغلق على نفسها، ومن شأنها أن تتخذ موقفا من الآخر، ومن شأنها أن تتموقع في الذات المفردة أو تجتمع فيها ذوات

متباينة تتحدّ فيما يشبه الذات المفردة، وعلى هذا الأساس والأسس التي أسلفناها سنتلمس صورة الذات في مدوّنة بحثنا.

- **الأنا: الذات المؤلّفة (موقع السارد):**

وهذه أبسط دوائر صورة الأنا التي تجلّت في مدوّنة بحث (جهينة الأخبار)؛ فقد تجلّت في الذات الساردة[10]، وهذه الصورة البسيطة من صور الأنا تتجلى في كل المدونات التي من شأنها أن تنقل خبرا؛ إذ يتموقع المدوّن في موقع السارد من أيّ مرويّة حسب جنسها التي تتشكّل فيه، كالروايات وكتب التاريخ وكتب الأخبار. وفي كتاب جهينة الأخبار يشدّ الباحث العنوان "جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار" نحو ملحوظات مهمّة، منها أنّ الكتاب يتموقع فيه السارد في هيئة السارد العليم، نستوحي هذا التموقع من إحالة عنوان الكتاب (جهينة الأخبار) إلى قول الشاعر [من الوافر] الذي غدا بمنزلة المثل في التراث العربيّ[11]:

تُسَائِلُ عن حُصَيْنٍ كُلَّ رَكْبٍ وعنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ اليَقِنُ

ويستفيد مؤلف الكتاب من ارتباط جهينة بالخبر اليقين؛ ليفرض نفسه ساردا عليما، ويجعل من هذه الذات مركز الصدق والتيقّن، وهي صورة رسمها المغيري لنفسه متصوّرا فيها أناه، وهذه استراتيجيّة في الإقناع وممارسة السيطرة على المتلقي، ومن هذه العتبة؛ أي عنوان الكتاب يؤسّس المغيري لما سيأتي من أبواب، ولاسيّما في سرد الأحداث التي عاصرها، وتموقع فيها موقع السارد من قلب الحدث.

وهذه الأنا في صورتها البسيطة لا تعمّق جدليّة الأنا مقابل الآخر، وما هي إلا استراتيجيّة باثّ لإقناع المتلقي، وعرضنا لها لاستفراغ الظاهرة جريا على مقتضيات المنهج.

- **الأنا العماني الإباضيّ:**

تجلت صورة الأنا في بعد آخر يمكن رصده في ثنايا كتاب جهينة الأخبار، وهي في بعدها المذهبي، إذ يتماهى المذهب مع الأنا ليكون مفردة من مفردات هويّتها ووجودها.

يقول المغيري واصفا التركيبة السكانيّة في بلدة مليندي: "وبها الآن بعض من عرب عمان، وأغلبهم من أهل اليمن بإزكي من عمان، وكلهم إباضية المذهب، وسيرتهم في المواظبة على أداء الصلوات بوظائفها وتلاوة القرآن العظيم حسنة جدا، حتى إنهم يربون أولادهم الصغار على هذه السيرة والآداب العربية، وهيأتهم عمانية، ويجتنبون حلق اللحى"[12]، وهذا النصّ يرسم صورة مثالية للأنا باعتبار أنّ المغيري إباضيّ المذهب، ويستحضر الصورة المثالية لانتمائه المذهبيّ، وهو في ذلك يرسم صورة مثالية لمذهبه، فالاختيارات التي زخر بها النصّ تشي بهذه الصورة المثالية من قبيل: (المواظبة، أداء الصلاة، تلاوة القرآن، حسنة جدا، يربّون أولادهم) وقد تماهى ما هو عرفيّ عمانيّ بما هو ديني إباضي؛ وقد سوّغ هذا التماهي للمغيري أن يقول عن هذه البلدة إنّها "كانت تسمى عمان الصغيرة"[13].

وتتجلى صورة الأنا العماني الإباضي في هيئة مخصوصة في مخيلة المغيري، وهو يستمدها من واقع يعيشه ويقارنه بآخر، فيرسم صورة العمانيّ بلحيته لا يأخذ منها شيئا، كما أشار في النصّ السابق أنّ أهل مليندي من العمانيين لا يأخذون من لحاهم شيئا. وقد فنّد صورة مرسومة نسبت إلى السيّد سعيد، مستعينا بالصورة التي تمثّلها للعمانيّ الإباضيّ الذي لا يأخذ من لحيته شيئا، "ولأنّ السيّد سعيد لا يرضى أن

يؤخذ من لحيته شيء كما يُرى في الصورة الموجودة"[14]؛ لذا فهذه الصورة لا يمكن أن تكون للسيّد سعيد بن سلطان، ولا مستند للمغيري في نفي هذه الصورة المرسومة إلّا الصورة التي رسمها في مخيلته عن الإباضيّ العمانيّ في أصل وضعها وكينونتها.

ويتكئ المغيري على البعد المذهبي في الوجود العماني وتأصيله في شرق إفريقية، وهذا يشي بوعي المغيري وهو يرسم صورة الأنا العمانيّة في شرق إفريقية، ويجذرها أصيلة ليست غريبة معتمدا على البعد المذهبي، ويظهر التماهي بين ما ينسبه إلى الإباضيّة وإمكان نسبته إلى عمان، فيكون الأنا العماني معادلا للأنا الإباضيّ حين يقول: "من علماء الإباضية الوليد بن سليمان بن مبارك الكلوي الإباضي من بلد الزنج؛ وذلك في زمن عادي بن يزيد البهلوي، فعلى هذا ليس من المستحيل أن يكون يومئذ لعرب عمان علاقات واتصالات بكلوة في أيام ما كانت عامرة وعاصمة"[15]، ويحتمي المغيري في تأصيل الأنا العمانية بالجانب المذهبي، رغم أنّ أيّ إباضيّ وصل الشرق الإفريقي قد يكون من اليمن[16]، ولكن عبارات المغيري تدل على ربط الإباضي بالعماني ربطا يصل إلى التماهي كما أسلفنا.

وقد اهتمّ المغيري بالمسألة المذهبية في كتابه، ولا شكّ لدينا أنّ هذا الاهتمام ممّا يفيد في تتبع صورة الأنا في بعدها المذهبي، فتكون صورة الأنا الإباضيّ حاضرة في كتاب جهينة الأخبار، ويمكننا أن نزعم أنّ كتاب جهينة الأخبار يقدّم معلومات مهمّة في الحركة المذهبية في الخارطة الإسلاميّة[17].

ولم يفت المغيري أن يرسم صورة مشرقة عن الأنا العمانيّ الإباضيّ موسومة بالتسامح ويضفي عليها هذا البعد المهمّ[18]، ومن الملحوظ أنّ المغيري يرسم هذه الصورة في الحكام والسلاطين تاركا

الرعية على دين الملك، حيث يقول: "ومن جميل أخلاق سلاطين زنجبار عدم التعصّب في الجنسية والأديان ... ومهما تصفحت تاريخ زنجبار لا تجد فرقا بين العرب وسائر الأجناس"[19]، فالتسامح مع الجنس والدين، وهما بعدان مهمان في التسامح والتعايش وقبول الآخر. ويخصص القول في التسامح المذهبي إذ يقول ناقلا رسالة السيد سعيد بن سلطان في أنّ "كل مذهب يتبع مذهبه، هذا ما جرت به العادة من قديم بذلك"[20]، وكما يظهر في الرسالة أنّ هذه هي العادة المتبعة في الشرق الإفريقي في ظلّ حكم العرب العمانيين، يدلّ على ذلك استخدامه عبارة (جرت به العادة)، وقد أفرد المغيري مبحثا خاصا بعنوان: أوامر السيد سعيد إلى عمّاله بعدم التعرّض للمذاهب الدينيّة[21].

- **الأنا العربيّة:**

وهذه أوسع صورة دوائر الأنا التي يمكن رصدها في كتاب جهينة الأخبار، وفي هذه الدائرة من دوائر الأنا يذوب ما سبق من الصور والدوائر ويصبّ؛ فالأنا بوصفها شخصا أو الأنا بوصفها منسوبة إلى إقليم معيّن (العمانيّ) أو الأنا بوصفها منسوبة إلى مذهب (الإباضيّ) كل ذلك يصبّ في الأنا بوصفها جنسا وقوميّة (العربيّ).

يقول المغيري: "ونزلنا أضيافا بدار الشيخ على بن سعيد البطاشي، وهو من أغنياء العرب فيها"[22]، وهذا الشيخ من العرب العمانيين، واكتفى بوصفه أنّه من العرب، وهذا الاختيار سواء أكان واعيا أم غير واع؛ يشي بتماهي صورة العمانيّ في صورة العربيّ، وبذا تكون سمة العربيّ دائرة أوسع من دوائر الأنا عند المغيري.

ومثل هذا كثير في كتاب جهينة الأخبار، وقد صرّح المغيري أنّ من أهمّ ما يرومه من تصنيفه كتاب جهينة الأخبار إظهار دور العرب ومفاخرهم، فهو "غير مبال ولا خاش ولا متألم بما سيقوله كلّ منتقد حقدا كان أو حسدا من عند نفسه الأمّارة بالسوء، لأنّي (المغيري) حريص جدا على إظهار مفاخر العرب"[23]، فكل ما تحقّق في الشرق الإفريقي من مجد ومفاخر يعزوه إلى العرب عامّة لا العمانيين خاصّة، ومع أنّ ممّا شاع استعمال كلمة العرب ويراد بها العمانيين في حديث أهل زنجبار من العمانيين؛ لكنّنا نرى أنّ لهذه المواضعة مسوّغا وأصلا يقضي بأنّ مفهوم العرب شامل لكلّ عربيّ وطأت قدمه تلك الديار، فأنتج فيما يمكن عدّه في حضارة العرب عامّة.

ويرسم المغيري صورة العرب بسمات مشرقة إذ يقول: و"العرب لم يتعرضوا للأهالي بشيء من الأذى"[24]، فالتسامح والتعايش سمة العرب الذين عمروا شرق إفريقية، لم يؤذوا السكان الأصليين، ولم يعيشوا بمعزل عنهم، بل خالطوهم وعاملوهم معاملة حسنة.

ويركز المغيري في إظهار بعد التعايش في أبهى صوره، وهو الاندماج والتزاوج؛ فقد "امتزج دم العربي بدم الأسود امتزاجا؛ حتى لا يقدر أحد أن يفرّق بين العربي والإفريقي إلا في بعض الأشخاص النادرين"[25]، وهذا دليل أكيد على ترسخ قيمة التعايش والتسامح في صورة الأنا العربيّة في الشرق الإفريقي كما يرسمها المغيري.

ويظهر التماهي بين العنصر العماني ضمن الجنس العربيّ واضحا جليّا في عبارات المغيري من مثل قوله: "ولا يبرح من قلب القارئ أن العرب العمانيين كانت لهم السيادة على ساحل إفريقية الشرقية والجزر المحيطة بها"[26]، ومع تخصيص هذا النصّ العنصر العمانيّ، لكنّه يظهر مغروسا في جنسه العربيّ باستعمال مركب وصفيّ

(العرب العمانيين) وصف به العامّ بالخاصّ وهو في الحقيقة يمزج الخاصّ في العامّ، ولئن كان الإجراء (السيادة على الساحل) من قبل الأنا الخاصّة (العمانيّ)[27]؛ فإنّ المفخرة بالهمّة العالية تنسب إلى العرب كافّة إذ يقول: "الهمّة العالية التي بذلها العرب لجديرة حقا أن تكتب مآثرها وأخبارها بماء الذهب على صفحات اللجين"[28]، فلو كان العمل من صنع الأنا في صيغتها الخاصّة (الأنا العمانيّة) فالفخر يكون بصيغة الأنا الواسعة (الأنا العربيّ)[29].

- **نقد الذات:**

عدل الباحث عن عنونة المبحث بوسم (الأنا العليا)؛ كيلا يغرق البحث في مصطلحات علم النفس والتحليل السيكولوجي، ويتضمن مفهوم مصطلح نقد الذات فيما يتضمنه من دلالات مفهوم الأنا العليا. فالأنا العليا "يتماثل دوره مع دور القاضي أو الرقيب تجاه الأنا، ويرى فرويد في الضمير الخلقي وملاحظة الذات وتكوين المثل العليا بعضا من الأنا الأعلى"[30]، وبذا يتوثق شكل من أشكال الترادف بين نقد الذات والأنا العليا، ودلالة نقد الذات ألصق بما نروم نقاشه في هذا الصدد.

ومن الوعي أن تتخذ الأنا نفسها موضوعا للتفكير، وبذا تكون أقدر على تجريد نفسها بعدّها ظاهرة للبحث والتأمل، ولا يحصل هذا إلا بالوعي بوجود مسافة كافيّة للموضوعية بين الذات وما تقوم به وتنجزه؛ فـ"تصوّرنا عن الأنا العليا ينزع إلى أن يكون غير واضح عندما تكون العلاقة متناغمة بينها وبين الأنا"[31]، وهذا التناغم يلغي مسافة التأمل؛ فلا تستطيع الذات (الأنا) أن تتخذ نفسها موضوعا للبحث

والتأمل. إنّ هذه المسافة لضرورة لقيام عمليّة النقد على أسس موضوعية.

ومع ما رصده الباحث من حضور الأنا في دوائرها المختلفة فيما أسلف من معالجة؛ إلا أنّنا رصدنا مواضع غير قليلة تفطّن فيها المغيري إلى هذه الذات، وجرّدها موضوعا للنقد، ورصد جانبا من سلبياتها وإخفاقاتها، ومواضع النقد هذه تجعلنا نطمئنّ إلى مستوى معين من الموضوعيّة والحياد في إعادة صياغة التأريخ مثبتا في الورق مارّا بمخيلة ذات تعيد إنتاجه من منظورها أو ربما كان من مخيلتها(32).

ويظهر نقد الذات عند المغيري في سياقات مختلفة، ويشي بمستويات متباينة، فمن هذا النقد ما يظهر مع الذات متجردة من تقابلها مع الآخر، ومنه ما يظهر في جدلها مع الآخر، وللمغيري قدرة على أن ينفذ من مقابلة الأنا والآخر إلى قضيّة أخرى، وتكون الذات هي موضوع هذا الجدل والتفكير؛ فمن الجدليّة في نظر هيجل "انتقال الذهن من قضية ونقيضها إلى قضية ناتجة عنها"(33) وبهذه الجدليّة طرق المغيري في نقده الأنا (الذات) زوايا متنوّعة، وسندلل على صورة هذه الأنا وهي تنقد نفسها متخذةً من نفسها موضوعا للبحث والتأمل في النقد.

فعلى المستوى المنهجيّ في كتابة التاريخ يعترف المغيري بإهمال العرب العمانيين وتأخرهم في علوم صناعة التاريخ وتوثيقه، إذ يقول: "وحيث إنّ العرب العمانيين في ذلك الوقت ليس لهم إلمام ومعرفة في تخطيط الأرض ورسم الخرائط؛ فنأسف جدّا على إهمالهم التاريخ بعدم الاعتناء به"(34)، وقد علّل أسفه بنقص ما لدى العرب العمانيين من معرفة في تخطيط الأرض ورسم الخرائط، وهي مقدمة قياس مضمر يتكئ المغيري عليه ليؤسس شرعيّة خطابه التاريخي ووجاهته.

ولئن بدا خطاب نقد الذات في عبارته الآنفة منفكا من ربقة جدلية الآخر؛ فهناك ما يشي بنقد الذات في مقابلتها بالآخر، إذ يقول: "وها أنا ذا أبينها في هذا التاريخ، والأسف ملء جوانحي، حيث أعتمد على نقل مآثر العرب ومفاخرهم، وقوة ظهور سلطانهم في هذه القارة الإفريقية مما دوّنته التواريخ الأوروبية"(35). ويتشكّل أسف المغيري من طريقين: طريق مع الذات وآخر مع الآخر؛ وقد جرّد أناه من ذاتها وقابلها مع نفسها، وجرّدها مع الآخر؛ فكان الأسف واحدا من طريقين.

وفي المستويين كليهما؛ أي نقد الذات مقابَلة مع نفسها أو مقابَلة مع الآخر يثبت المغيري قدرة على صياغة خطاب نقديّ عميق يتخذ الذات موضوعا للنقد والتأمل، وهذه الإشارات التي رصدناها كانت على صعيد المنهج في تدوين التاريخ، فهي في موضوع علميّ ينبغي فيه للمصنّف أن يتجرّد من الذاتيّة، ويتصف بالموضوعيّة.

ولم يقتصر المغيري على النقد في الزاوية العلميّة بل تعدّاه إلى جوانب أخرى تجلت فيها قدرته على نقد الذات وربما إلى حدّ جلدها (إضاءة)، فقد قدّم نقدا عميقا لشخصية العربيّ الذي يدعي ويتفاخر مع كونه في موضع لا يؤهله لذلك الفخر. يقول المغيري: "وصار ذلك العربي الذي يدعّي السيادة والسؤدد والغنى في هذه الإفريقية الشرقيّة، وفي جزرها تحت رحمة ذلك الهندي الذي استولى على أعمال التجارة"(36)، فكيف يفخر العربي وهو تحت رحمة الهندي، واختيار المغيري لفظة (يدّعي) واصفا بها العربيّ، يشي بأنّ المغيري يرى هذا الفخر في هذا المقام محض ادعاء فارغ، وهذه نقطة نقد لزاوية طالما أغرق المغيري في إثباتها في خطابه وأمعن؛ ونعني بها مفاخر العرب في إفريقية الشرقيّة.

ولم يقف المغيري في نقد الذات عند هذا الحدّ فحسب، بل جاوزه لمستوى أعمق، وإلى زاوية حرجة؛ عندما أدان العرب في إهمالهم نشر الدين الإسلامي في ربوع إفريقية كافّة، وسنثبت النصّ الذي يصرّح فيه المغيري بهذه القضية الحرجة على طوله، إذ يقول:

"وقد غفل العرب خصلة من خصال المآثر الحميدة في اكتشافهم للبرّ الإفريقي، وهو نشر الإسلام والعلوم والدين بين جماعة الإفريقيين في داخلية البرّ الشاسع، ولو كان اهتمام العرب بانتشار الإسلام من أول رسوخ قدمهم فيه؛ لكان البرّ متنوّرا بنور الإسلام، ولكان الإفريقي ذلك الصقع كلهم مسلمين على الإطلاق، ولم يجد المبشّرون بالدين المسيحي مجالا واسعا في تنصّر الإفريقيّ، لكن اشتغل العرب الفاتحون بجمع المال وعظمة السلطان الذي اضمحلّ، ولم يبق له أثر قطّ"[37].

ومن المعلوم أنّ العرب قد أكثروا من تبرير فتحهم الأقطار التي فتحوها بنشر الإسلام[38]، وليس الأمر كذلك في نصّ المغيري، فهو يرى أنّ العرب قصّروا في هذا المضمار، وكان ينتظر منهم نشاطا أكبر في نشر الإسلام، وأثبت أنّهم انصرفوا إلى العارض الزائل عن الثابت الباقي؛ فقد انصرفوا إلى جمع المال وعظمة السلطان عن نشر الإسلام، ولا يحتاج هذا النقد إلى برهان في عمقه وحرج موضوعه، ولاشكّ لدينا في أنّه لدليل قاطع على قدرة المغيري على صياغة خطاب نقديّ واع، والمغيري يقدّم تبريرا آخر لفتح هذه الأقطار طالما كان مسكوتا عنه غير مصرّح به؛ ونعني به جمع المال وبسط السلطان، كما يدلّ على ذلك نصّ خطاب المغيري وفحواه.

وقد طرق خطاب المغيري الناقد تفاصيل حياة العربيّ ناقدا إيّاها في مواضع تستحق فيها النقد؛ فعندما صار العربيّ متكاسلا لم يتوان المغيري عن وصفه بهذه الصفة[39]، في جدليّة مع الآخر الهندي الذي

وصفه بالعمل والاجتهاد. ومما نعى فيه المغيري على العرب في شؤون حياتهم صفة "الجهل والإسراف الذي خيّم على العرب من قلّة العلم؛ لعدم وجود مدرسة عربيّة تعلّم أولادهم"(40).

ويتضح مما سبق جليّا سعي المغيري إلى تقديم نقد واع وجريء للذات، فهو واع بالزوايا التي يمكن أن تكون مفاصل نقد، وجريء في طرحها لا يعبأ في دكّ المسلمات المتواضع عليها، ولا يحفل بما يمكن أن يكون تناقضا في خطابه هو نفسه؛ إذ كيف يسعى في مصنفه إلى إثبات مفاخر العرب وهو ذاته يقوم بخلخلة هذه المفاخر والنظر في أوجه قصورها؟

خاتمة

من شأن المؤرّخ أن يستحضر صورة الآخر، وتبعا لذلك ستحضر صورة الأنا حضورا واعيا في خطابه، وقد سعى هذا البحث إلى تلمّس صورة الأنا ضمن جدليّة التنافس والتدافع التي لابد أن تكون حاصلة في سيرورة التاريخ، وفي تدوين هذا التاريخ وتوثيقه، ولم يسع في هذا البحث إلى إدراك حقيقة هذه الصورة؛ فالحقيقة تطلب ولا تدرك، وإنّما سعى إلى تلمس صورة الأنا في نصّ رأى الباحث أن يعالجه مغلقا في كثير من الأحيان؛ أي بما ينطقه ويشير إليه دالا عليه بالتصريح والتلميح في رسم صورة الأنا.

وقد تبيّن في البحث نتائج، أبرزها:

- وجود دوائر عديدة من صورة الأنا في مدونة البحث.
- رسم الكاتب لكلّ دائرة من الدوائر أبعادها وملامحها، بحسب موقعها من الأنا الصغرى أو الآخر في بعض المواضع.
- أفضت هذه آبعاد دوائر الأنا التي رسمها الكاتب في مدونة البحث إلى تبلور صورة كليّة عن الأنا في مخيلة الكاتب.
- تشكلت أبعاد صورة الأنا في بعض دوائرها ضمن جدليّة الأنا والآخر، وبعضها خارج نطاق هذه الجدليّة.
- رسم الكاتب صورة نمطيّة للأنا في المجتمع الذي ينتمي إليه.

وينفتح البحث على مشاريع أخرى قد يتطلع إليها الباحثون، فيمكن أن يحفر البحث التاريخيّ أو عبر اللغويّ في خصائص الخطاب التاريخيّ العمانيّ، أو يقوم الدرس المقارن بموازنة صورة الأنا والآخر بين مدوّنات التاريخ العمانيّ العمانيّة والإفريقيّة، وإلى غير ذلك من الآفاق البحثية التي يمكن أن ينفتح عليها هذا البحث.

الهوامش والإحالات

(1) سارتر، جان بول، الوجود والعدم، تر: عبد الرحمن بدوي، ط2، دار الآداب، بيروت، 1966، ص586.
(2) سعيد بن علي بن جمعة المغيري (1882 – 1963م)، ولد في عمان في جعلان بني بو حسن، وهاجر إلى افريقية، ومات بها، عينته حكومة زنجبار عضوا في المجلس التشريعي، ومنحته لقب صاحب العزّة، صاحَب السيد خليفة بن حارب إلى أوروبا في رحلات عدّة، وقلّده وسام الكوكب الدريّ. الموسوعة العمانيّة، وزارة التراث والثقافة، عمان، ج 5، ص1789.

(3) السيّد، عمر، الأنا والآخر من منظور قرآني، دمشق، دار الفكر، 2008، ص29.
(4) الموسوعة العمانيّة، وزارة التراث والثقافة، عمان، ج3، ص989.
(5) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفيّة، تر: خليل أحمد خليل، بيروت، منشورات عويدات، ط2، 2001، ص824.
(6) حنفي، عبدالمنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000، ص108.
(7) المرجع نفسه، ص١٠٨.
(8) آنا، فرويد،: الأنا وميكانزمات الدفاع، تر: صلح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1972، ص10.
(9) هيجل، جورد فيلهلم، علم ظهور العقل، تر: مصطفى صفوان، ط3، بيروت، دار الطليعة، 2001، ص143.
(10) استعرنا هذا المصطلح من السرديات؛ إذ يكون السرد "هو النشاط السردي الذي يضطلع به الراوي وهو يروي" وهذا ما يقوم به المؤرخ. راجع: القاضي، محمد، وآخرون، معجم السرديات، تونس، دار محمد علي، الطبعة الأولى، 2010، ص243.
(11) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، ج2، ص الميداني، مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 1992، ص158.
(12) نفسه، ص166.

(13) نفسه، ص166.
(14) نفسه، ص255.
(15) نفسه، ص138.
(16) وقد أشار المغيري نفسه مقتبسا من المسعودي ما يشي بذلك؛ إذ يقول: "كما ذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب أنّ جزيرة تمباكو أو أنجوان من جزائر القمر افتتحها الأزد الإباضية سنة 864م"، ص171.
(17) يوجد في كتاب جهينة الأخبار إشارات مفيدة في هذا الجانب، ولا سيّما فيما يفيد في دراسة مراحل انحسار المذهب الإباضي وطرقه في الجانب الجنوبي الشرقي من العالم الإسلامي من مثل قوله:

"ونقل المسيو كارثي ... أن أسرة عربية عمانية قامت ببلدة تشيتغني من بلد جزر القمر ... وقت تزوج واحد منهم بابنة السلطان مايوث، ثمّ خلفه على السلطنة ولده، وخرج على مذهب الإباضية إلى مذهب الشافعيّة"، ص171.

وقوله: "ومن غير شك فإن المزارعة كانوا إباضية المذهب، وفيما أظنّ أن مزارعة ممباسة وبعضا من مزارعة الجزيرة الخضراء قلدوا مذهب الإمام الشافعي في أواخر دولة السيد برغش بن سعيد"، ص229.

(18) ليس من شواغلنا البحث عن حقيقة هذه الصورة؛ فهذا من شأن المؤرخين، ولكنّنا نتتبع صورة الأنا كما هي عليه في مدونة بحثنا ملتزمين بالمنهج الذي رسمناه لبحثنا عن الأنا في هذه المدونة.
(19) نفسه، ص262.
(20) نفسه، ص271.
(21) نفسه، ص271.
(22) نفسه، ص139.
(23) نفسه، ص57.
(24) نفسه، ص282.
(25) نفسه، ص284.
(26) نفسه، ص193.
(27) يقول في موضع آخر: "وقد سيطر العنصر العماني على جميع داخليّة البرّ سيطرة دائمة وثابتة"، ص255.
(28) نفسه، ص248.
(29) ما أحوج الوطن العربيّ في هذه الفترة إلى مثل هذا الخطاب!
(30) بلانش وبرتراند، بنتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر: مصطفى حجازي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2011، ص203.

(31) آنا فرويد، الأنا وميكانزمات الدفاع، ص9.
(32) ونرى أنّ هذا دأب كتب التاريخ أجمعها.
(33) مجمع اللغة العربيّة، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983، ص60.
(34) نفسه، ص67.
(35) نفسه، ص57.
(36) نفسه، ص262.
(37) نفسه، ص248.
(38) ولا نرى هذا المبرر منتفيا على كلّ حال، كما أنّنا لا نرى إطلاقه دقيقا من الناحية العلمية، ولعلّ المغيري يرى هذا الرأي كذلك.
(39) نفسه، ص262.
(40) نفسه، ص262.

المصادر والمراجع:

- مدونة البحث:

1) المغيري، سعيد بن علي، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق: محمد على الصليبي، ط3، عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1992.

- الموسوعات:

2) الموسوعة العمانيّة، عمان، وزارة التراث والثقافة، 2013.

- مراجع البحث:

3) آنا، فرويد، الأنا وميكانزمات الدفاع، ترجمة: صلح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصرية، 1972.

4) بلانش وبرتراند، بنتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى حجازي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2011.

5) حنفي، عبدالمنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000.

6) سارتر، جان بول،، الوجود والعدم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط2، بيروت، دار الآداب، 1966.

7) السيّد، عمر، الأنا والآخر من منظور قرآني، دمشق، دار الفكر، 2008.

8) القاضي، محمد، وآخرون، معجم السرديات، تونس، دار محمد علي، الطبعة الأولى، 2010.

9) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفيّة، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت، منشورات عويدات، ط2، 2001.

10) مجمع اللغة العربيّة، المعجم الفلسفي، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983.

11) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، ج2، ص الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 1992.

12) هيجل، جورج فيلهلم، علم ظهور العقل، ترجمة: مصطفى صفوان، ط3، بيروت، دار الطليعة، 2001.